الصحراء في تاريخ العلاقات السعدية العثمانية
مرحلة المهادنة والمناورة
عهد أبي العباس أحمد المنصور (1578-1603م)

الباحث أشراف هلالي
طالب باحث بسلك الدكتوراه
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس سايس
المغرب

مقدمة:

أظهرت مرحلة حكم محمد الشيخ المهدي (1544-1557م) تطلعا سعديا إلى عتق المغرب الأقصى من وضعية الدولة العازلة، التي سعت إلى فرضها قوى المتوسط المتنافسة حول إقرار نفوذها بالحوض الغربي للأخير.

وإذا كان الشيخ قد جعل من مواجهة القسطنطينية أولوية في أعقاب تأمينه للواجهة الأطلنتية لدولته الناشئة، عندما أجلى لشبونة عن حصن أكادير 1540م، فإنه راكم المكاسب كما الانتكاسات على الواجهتين الشرقية والجنوبية من خلال تمثله لاستراتيجية صحراوية قائمة على التصعيد والمواجهة، بقصد حجب سلطة الباب العالي دون الامتداد غربا. وهي الاستراتيجية ذاتها التي اقتفى أثرها خلفه أبو العباس أحمد المنصور (1578-1603م)، مرجحا سبل المناورة والمراوغة والمهادنة، والتي أقامت له ملكا إمبراطوريا، حاز إلى الصحراء ممالك ما وراءها الجنوبية؛ بدءا باقتضاء واحات القبلة (توات، تيكورارين) ثم ممالح تيغازى، مرورا بكفالة بيعة إدريس ألوما، التي أعلنت انضمام مملكة بورنو للحكم السعدي؛ فالفتح العظيم لإمبراطورية كاغو الصنغانية، قبل أن تنكسر آخر التطلعات الصحراوية العثمانية عند واحة فجيج، التي صدت آخر منافذ الجزائر التركية على الواجهة الصحراوية.

1ـــ ما بعد الشيخ:

يرشح مما سلف ذكره في مقالنا السابق، أن الشيخ جعل من العثمانيين أخطر الأهوال المتوعدة لنشأة واستقلالية دولته، وأن صدهم عن احتواء سلطنته وإلحاقها بنفوذ الباب العالي، ألزمه امتثال سياسة خارجية صحراوية المقاصد، في ظل إخفاق محاولاته في ضم تلمسان وما بعدها؛ ليُستنفذ زمن هذا السلطان على إيقاع من التوتر والتصعيد في العلاقات بين قوتين إسلاميتين، ادعت كل منهما أحقية الخلافة، فاتخذتا من وجهة الجنوب الصحراوية فضاء وارفا لتصريف مبارزاتهما السياسية والاقتصادية[1].

وإن أفضت أولى جولات هذه المبارزة إلى تصفية الشيخ، وإنذار مبكر باحتمالية تعثر مشروع سعدي واعد؛ إلا أن طائفة سلاطين الدولة من بعده على -مدد النصف الثاني من القرن 10ه/16م- تهيأ لهم -بحكمة ودهاء رفيعين- حفظ بأس بُنيان الشيخ، وصرف طاقة واستطاعة دولته إلى وجهة الجنوب دائما، حيث فرص إرساء صرح إمبراطوري على درجة من القوة والغنى، تدعمه الإفادة من عائدات التجارة القوافلية. ولم يكن خلفاء الشيخ خلال فترة السيادة والوثبة تلك، غير ثلاثة من جملة ذريته: **أولهم** عبد الله الغالب[*]، الذي اكتفى بتأسيس ما بيده، ولم يتشوف إلى الاستزادة على ما ملكه عن أبيه[2]؛ ولو أن عهده لم يخل من محاولات التضييق العثمانية، لعل أخطرها واقعة وادي اللبن عند أحواز فاس 965ه/1558م، التي دحض خلالها جيوش القسطنطينية وصد عدوانهم إلى مشارف تلمسان 967ه/1560م[3]. **وثانيهم**، عبد الملك المعتصم[*]، الذي اضطره خرق الغالب بالله قاعدة ولاية العهد المتوافق بشأنها منذ القائم بأمر الله جد الدولة، الاستعانة بتُرك الجزائر في مناسبتين حاسمتين: خلع المتوكل عن فاس 984ه/1576م، ومواجهة البرتغال عند وادي السبيل (وادي المخازن) 986ه/1578م؛ مُبقيا -بأسلوب مراوغ- على وحدة واستقلالية سلطنته، في وقت حرصت فيه الأستانة عل إدراج نصر عبد الملك ضد دون سبستيان كفصل من فصول الصراع العثماني الإيبيري "**أباد رمضان باشا الجيش الصليبي**

بشكل حاسم خلال ساعات، كان السلطان عبد الملك مريضا، وعندما عَلِمَ بحصول رمضان باشا على نتيجة حاسمة، مات في لحظتهما من شدة الفرح"[4]. أما **ثالث** خلفاء الشيخ، أبو العباس أحمد المنصور[**]، فالوحيد –ربما– الذي استيسرت له ظرفية الخارج لِمُدَارَاتِ كامل خصوم دولته ومداورتهم؛ وبخاصة العثمانيون المنشغلون على عهده بصراعهم ضد صفويي بلاد فارس، واضطرابات معظم البلاد العربية المُمْتَلَكَةِ لإمبراطوريتهم. وهي انشغالات أمكنت المنصور من عمق إفريقي فارع، حاز الصحراء وما والاها من ممالك الساحل؛ وإن أصرت القسطنطينية على احتسابه–مرة أخرى– ظفراً ومكسباً للدولة العلية "**أما الدولة الزنجية المسلمة الموجودة في غرب إفريقيا بين الأطلسي ونهر النيجر، فكانت تابعة لفاس، وبذلك كانت تتمتع بنظام عثماني**"[5].

وأيا كانت زاوية نظر كل طرف إلى الإنجازات المحققة، فالثابت أن مغالبات الغريمين السعدي والعثماني خلال النصف الثاني من القرن 10ه/16م قد تمت في جزء منها –كما النصف الأول للقرن ذاته– عند أعتاب الصحراء وما والاها جنوبا.

وإن حملت فترتا حكم الغالب بالله والمعتصم إشارات غير مباشرة لمحاولات تركيز صراع المغربين الأوسط التركي والأقصى السعدي حول قضايا جنوبية؛ فالظاهر –بحسب وقائع الأحداث– أن فترة حكم المنصور ستستأثر– عكس أخويه– بشارات مكشوفة لتنازع لم تبرح جولاته –حصريا– دوائر الصحراء . بل إن نَفَسَ المنصور في سبر الغور الإفريقي يدفع إلى التساؤل عن مقدرات الجزائر التركية –حينها– في تعقب صولات سلطان تحقق له ما لم يتحقق لغيره من سلاطين المغرب الأقصى عبر تاريخ الدولة العريض. إذ هي –مرة أخرى– حالة استثناء فريدة، تلك التي صنعها المنصور بتسخيره المنشأ الصحراوي لسلطنته بصرف نفوذها عن وجهتي الشمال (الأندلس) والشرق (بقية المغارب) المعهودتين زمن صنهاجة ومصمودة وزناتة إلى وجهة الجنوب؛ متشوفا إلى منابع الذهب التي لم تنشكف يوما أسرارها حتى لسلاطين السودان أنفسهم "**وها هم سادتنا الأشراف، خلف الله ملكهم، حصنوا أرض المغرب ونفوا عنه رجس الكفر، فيدخلون السودان، فيملكونها ويستولون على سائر أقاليم الأرض ويملكونها**"[6].

فتح تاريخي، يدفع إلى الاستفسار عن جدوى تسخير كل جهود الدولة، وتركيز كامل طاقاتها جنوبا؛ هل كانت بقصد عتق المغرب السعدي من حالة العزلة التي فرضتها مقتضيات الظرفية الإقليمية؟ أم أن المنصور –بحسب نتائج حملته الجنوبية تلك–لم يواز بين واقعه وطموحاته[7].

الأكيد أن المنصور جعل من الصحراء، وممالك السودان الواقعة جنوبها مشروع زمن حكمه، الذي لم تكن لتسعفه خلاله عائدات تصدير السكر ولا المكوس الداخلية أو الجبايات الخارجية، ولا حتى غنائم وادي المخازن الوافرة لتأمين مصاريف جيش نظامي ناهز تعداده نحو العشرة آلاف مجند[8]، ألزموا خزائن الدولة ما يربو عن المليون دينار سنويا؛ أي، ما يعادل حوالي الخمسة أطنان ذهبا[9].

كما أن تكاليف تشييد صرح "بديع" 997ه/1589م، يليق بسلطان أَلْمَعِيٍّ، أكرهت مخزونات الدولة إلى مستويات مقلقة، تذبذب على إثرها الدينار السعدي إلى ما دون أربع غرامات ذهبا، مع ارتفاع واضح في سعر صرفه دوليا إلى الحد الذي اعتبره كارديناس Cardenas –أحد التجار البريطانيين آنذاك– عائقا حال دون تحقيق التجار الأجانب بسلطنة المنصور أرباحا مشجعة[10].

لتشكل تكاليف الجيش، وكلفة القصر السلطاني عاملين فاقما احتياجات مراكش من ذهب، لم يكن من سبيل لتحصيله إلا بتوغل جنوبي مغامر إلى "**أبعد الأقاليم والمعمور، التي يعترض دونها القفر وسرابه المتوج الجور**"[11].

2ـــ طريق الإبريز المشبع بالخصوم:

ولم تكن وحشة القفر حائل المنصور الأوحد دون الإبريز السوداني، فالطريق إليه لم يخل من المناوأة والمغالبة: برتغاليون غربا، التمسوا اتصالا مباشرا بِوَدّان الموريتانية أو حتى تمبوكتو المالية 973ه/1565م[12]؛ وأتراك سحبوا في اتجاه ممتلكاتهم الغرب متوسطية حصصا وافرة من المعدن الأصفر. تشهد على ذلك تحركاتهم **العسكرية** على مستوى العمق الصحراوي بدءا بحملة صالح

رايس على واحتي تيقرت وورجلة 959ه/1552م، السالف ذكرها، ثم حملة جعفر باشا على فزان الليبية 964ه/1557م، متبوعة بمحاولات النفاذ إلى واحات القبلة التواتية 987ه/1579م؛ أو **الدبلوماسية**، والتي كشفت تفاصيلها عن اهتمام عثماني ظاهر بفرض انعطاف نفائس السودان الغربي نحو خزائن إيالاته الشمال إفريقية. إذ انعقدت في هذا الإطار اتفاقات ملزمة بين باشوات طرابلس ومملكة بورنو التشادية؛ كما تواترت المكاتبات بين مراد الثالث وماي إدريس ألوما في الشأن ذاته[13]. بل إن قائمة الممانعين لإدراك المنصور مجاهل الصحراء والسودان امتدت –كواقع حال أبيه الشيخ– لتجعل من أساكي صنغاي جنوبا، خصوما صريحين، انضبطت لإمبراطوريتهم ممالح المفازة، ركن مبادلات التجارة الصحراوية؛ إذا لم تُفلح جهود فصلهم عنها عسكريا كما دبلوماسيا[14].

وبالنسبة لسلطان أشهر منذ البدء مقاصد سياسته الخارجية، بفصل مراميها عن وجهتي الأندلس والمغارب "**ثم إن الأقاليم الإفريقية والأندلسية قد شغلت لهذا العهد بمن استولى عليها من العجم**"[15]. فإن "**صرف الوجهة لأصقاع الجنوب، وممالك السودان تَمَثّلَ** – بحسبه– **أحق وأولى، وإن كانت أصعب مراما**"، لا لشيء إلا "لأنها أغزر نفعا وأقوى بمعادنها وكثرة المشتاق من رقيقها، يدا على الاستكثار من الأسطول لغزو عدو الدين"[16].

لتتخذ بذلك خارطة طريق صولات المنصور خارج حواف سلطنته، منحى جنوبيا خالصا، ووجهة صحراوية صرفة؛ ألزمت جيوشه بحملات اختراق عمودية، ضمت لمُلكه واحات القبلة (توات وتيكورارين 989ه/1581م)، وأَضْمَنَتْهُ بيعة طوعية من ألوما كانم بورنو 990ه/1582م، مثلما أوجبت ارتداده المظفر إلى ممالح تغازى 993ه/1585م، وغلبة على حشود غفيرة من إمارات الصحراء المتقلبة بين ساحل المحيط والقبلة 997ه/1589م؛ قبل أن تُرغم حملة 999ه/1591م، أساكي صنغاي على الانتظام في سلك طاعته والانقياد لعظيم ملكه. على أن ترصد ظرفيات ومجريات صولات المنصور الصحراوية تلك، يبقى موجبا بكلمة في حق الأسطوغرافيا – الرسمية في مجملها– التي خطت تفاصيل حملاته الجنوبية: فابن القاضي[17] مثلا، والفشتالي[18] تحديدا، لم ينيا في تطريز وتنميق ألوية المنصور وأعلامه[19]؛ واعتبار حملاته تلك –على نحو ما وصفها به أحد الباحثين– مجرد نافلة[20]. بينما سديد الرأي، يدفع إلى إنزالها منزلة السنة المؤكدة، وربما جاز قيدها في مقام الفرض العين مادامت ظرفية المتوسط منذ مطلع القرن 10ه/16م، قد أوصدت وجهتي المغارب وشبه الجزيرة الإيبيرية في وجه تطلعات المغرب السعدي؛ ومادامت أحوال السياسة والاقتصاد لا تنتظم إلا بانتظام تجارة العبور عبر الصحراء الإفريقية. ومادامت عقارب الأخيرة قد تعطلت[21]، باستهداف الخصمين الإيبيري والعثماني لمنافذها الغربية والقبلية على التوالي؛ فإن مغامرة أبي العباس أحمد جنوبا، تظل سبيل دولته الأوحد لإعادة ترتيب موازين قوى الدائرة المتوسطية، والاستواء –لا محالة– مع قهارمة زمن سلطنته[22].

وقد وظفت جوازات المنصور الجنوبية تلك –على نحو ما أسلفنا– استراتيجيتي الإجادة طوعا، وهو ما امتثلت لنهجه أعمال توات وسلطنة إدريس ألوما التشادية، أو اقتضاء المغالبة حربا، وهو ما انضبطت لقرع طبولها قصور تيكورارين وعَرَبُ الفلاة المنتجعون بين أدرار موريتانيا ونهر السينغال وأساكي صنغاي.

3ـــ الصحراء وما بعدها، بين تطلعات مراكش والقسطنطينية:

لم تكن لتستيقن للسلطان السعدي مراهناته الصحراوية بعيدا عن أعين القسطنطينية، التي واضب سلاطينها على اعتبار المغرب الأقصى جزءً لا يتجزأ من الأستانة، أو –على الأقل– إقليميا عازلا يمكن عبره تصريف جولات الصراع ضد القوات الصليبية شمال المتوسط "**وأحمد المشار إليه، سيقوم في دياره بإلقاء الخطبة بإسمنا كعربون، وإذا لم يرد دليل يؤكد خيانته لنا أبقيه مكانه**"[23]. ولو أن بعض مظاهر "الود الدبلوماسي"[24] التي رشحت من علاقات القوتين المسلمتين، ألمحت إلى احتمال توافقهما بشأن تقارب سياسي، يلتزم في إطاره المنصور بعدم التطاول على الحدود الشرقية الواصلة بين سلطنته والإيالة الجزائرية، مقابل حياد الأخيرة بخصوص مخططات أبي العباس الصحراوية "**لك علي العهد ألا أمد يدي إليك إلا للمصافحة، وإن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسامحة**"[25].

لكنه التزام، لم يكن باشوات الجزائر ليفوا بمقتضياته، لأن من شأن امتداد دولة المنصور جنوب الصحراء، تقوية مؤسسات المغرب السعدي ومنحها فرصا أكبر في المنافسة على إمدادات التجارة العالمية في شقها المتوسطي، عبر إحياء أدوار الصحراء التاريخية على مستوى التبادل الأفرومغاربي. لأجل ذلك، كان من المحتم تعقب خطى المنصور الصحراوية، مادامت تطلعاته هناك متطابقة مع مواضع اهتمام وعناية الدولة العلية[26].

وعكس صور التناظر المغربية العثمانية زمن الشيخ، الذي حرص على أن يكون في ظهر تحركات أتراك الجزائر، سيكون الأخيرون – زمن المنصور– في عقب معظم خرجاته الصحراوية أو الجنوبية إجمالا. بل إن مثابراتهم في تقويض حكمه، تحركت بشكل مبكر عندما أَملوا تولية إسماعيل بن عبد الملك بدلا منه 986ه/1578م؛ أو على الأقل تقاسم السلطنة بينهما، على أن يكون قسمها الشمالي لإسماعيل، والجنوبي لعمه المنصور[27]. ثم ما فتئوا بعدها أن انكشف دعمهم للأمير مولاي داوود بن عبد المؤمن 987ه/1579م الثائر جنوبا[28]. وهي ترتيبات لا يمكن أن تُفهم مراميها إلا بميل عثماني عاجل لعزل المنصور، وحصر دوائر نفوذه بين نيران أسرية، ترمي بإسماعيل شمالا وبداوود جنوبا، فيصير المنصور بين فكي كماشة، يحركها باشوات الجزائر عن بعد بأريحية، قد تزيح عن طريق مشاريعهم المغاربية سلطانا ليس بالضرورة عنيدا كوالده الشيخ، بل أدهى من ذلك، بمراوغاته ومناوراته التي قد تنيله مقاصد سياسته الخارجية، التي تعلم القسطنطينية جيدا أن توجهاته بصددها جنوبية خالصة؛ وأن الصحراء الإفريقية الكبرى أمل سلطنته في البقاء والمواصلة؛ لأنها تجعله بعيدا عن أعين أتراك الشرق وإيبيريي الشمال والغرب، وتُظفره –دونهما– بسيولة التجارة الراحلة عبد مسالك مفازاتها.

والراجح أن تغليب المنصور الوجهة الصحراوية، قد أملته ظرفية ما بعد نصر وادي السبيل 986ه/1578م، التي خولت دولته فرصا أكبر في حسم داء الأستانة ووأد تطلعاتها إلى إلحاق المغرب الأقصى بسدة الباب العالي؛ بل والمراهنة على تخطف لواء الخلافة منها عقب الرجة العظمى التي أحدثتها خفقة ليبانتي ضد التحالف المسيحي 979ه/1571م وحرب الثلاثة عشر سنة ضد الدولة الصفوية 986ه–1578م/998ه– 1590م التي هددت بانشقاق شيعي؛ وهما حدثان –على الأقل– رجحا كفة المنصور في توظيف نصره الكاسح ضد البرتغال المسيحية، وتحويل أنظار العالم الإسلامي عن قسطنطينية لاحت إشارات قهقرتها، فيما بدت مراكش على أتم أهبة لإحياء خلافة الغرب الإسلامي، انطلاقا من أعتاب الصحراء إلى عمق إفريقيا الواقعة جنوبها.

وإذا كانت ليبانتي المتوسطية، ووادي المخازن الأطلنتية ثم شلدر (جلدر) 986ه/1578م، والمشاعل 991ه/1583م القوقازيتين، قد أقنعت سلاطين بني عثمان بلا جدوى مواصلة جهود إخضاع المغرب الأقصى، خلال ظرفية هي الأعقد عبر تاريخ سلطنتهم[29]؛ فإنها –على النقيض من ذلك– لم تُبطل بقية مشاريعهم التوسعية الإفريقية خلال الربع الأخير من القرن 10ه/16م، والذي يوافق مرحلة حكم أبي العباس أحمد المنصور؛ إذ تفيد بعض المكاتبات السلطانية إلى باشوات الجزائر بضرورة تحريك حملاتهم جنوبا للإطاحة بدوائر الصحراء[30]، تحسبا لأية جهود سعدية في هذا الاتجاه. ولعل صراع جند الأتراك ضد جيوش المنصور حول واحات القبلة 987ه/1579م، ومن بعدها حول واحة فجيج 991ه/1583م، وبعض محاولات الاستيلاء على ممالك إفريقيا جنوب الصحراء الواقعة أقصى شرقي الصحراء الإفريقية الكبرى (النوبة–الحبشة)، إلا تجسيد لرغبة عثمانية في حفظ حظوظ الإمبراطورية في المنافسة على الوجهة الإفريقية، التي ما فتئت تدعم موقعها المادي من خلال التحكم في محاور عبور نشيطة[31]، مثلما تسند سمعتها الدينية من خلال رعايتها لمسالك الحج الإفريقية عبر ولاياتها المتراصة شمال القارة.

بمعنى، أن استراتيجية الصراع العثماني السعدي جنوبا على عهد المنصور، ستتخذ طابعا استباقيا من جانب باشوات الجزائر، فرض توقع احتمالات زحف جند مراكش إلى أعتاب الصحراء وما يلحقها من ممالك قِبْلَتِها.

ولعل توقيت خرجاتهم الصحراوية خلال هذه المرحلة، مفصح عن تطلع الإيالة الجزائرية إلى الحيلولة دون بلوغ المنصور مقاصده الجنوبية، مغتنمة ميل أساكي صنغاي إلى ربط الصلة بالإيالات العثمانية الشمال إفريقية، عبر مسالك الصحراء الوسطى والشرقية[32].

4ـــ توات وتيكورارين، أول المقاصد الصحراوية:

إذا كان المنصور قد تجيّش لضم توات وتيكورارين في محاولتين متعاقبتين 990ه1582م/997ه-1589م، فإن محاولات الحلول العثماني هناك سنوات قليلة قبلها 987ه/1579م، أظهرت قصور باشوات الجزائر عن الخوض بشكل غائر على مستوى العمق الصحراوي. فبحسب ج.ب. مارتن A.J.P. Martin، حرّك حسن فنيزيانو(*) محلة من رجالاته بطلب من أعيان توات سنة بعد غارة قبائل فيلالية 986ه/1578م على أعمال الواحة، وقتلها زهاء 1300 تواتي[33]. وكانت حملة محتشمة لم تغير في وضع الواحة الصحراوية من شيء، إذ عادت عناصرها سريعا أدراجها إلى الجزائر دونما إقرار لوجه من أوجه السلطة التركية هناك؛ لكنها مع ذلك اعتُبرت –من جانب المنصور– منذرة بخطر كبير، إذ احتمال تسلل رجالات فينيزيانو في اتجاه تافيلالت ظل واردا. وفي حال تحققه، ستصير مشاريع أبي العباس الصحراوية في مهب الريح[34]. ولعلها مخاوف، حملت مراكش على التعجيل بالنهوض إلى واحات الصحراء الوسطى في أعقاب رحيل الترك عنها[35].

وقد كشفت تفاصيل حملة المنصور في اتجاه القطرين الصحراويين عن استراتيجية سعدية عسكرية صارمة ومنضبطة، فرضت طاعة الدولة، بمجال نفوذ الواحتين لما كان لهما من أهمية قصوى في فتح مراكش على تجارة السودان، "**حتى إن الخيل تعثرت في دماء الممانعين**"[36]. ولأنها خرجة تعني للمنصور الشيء الكثير، فقد تجهز إليها –كما أسلفنا– بجيشين عظيمين، وبعساكر ضخمة[37]، استهدفت قاعدتي الإقليمين الصحراويين تينميمون رأس قصور تيكورارين وتمنطيط كبرى قصور توات على التوالي؛ كما تعمدت إرهاب خصوم السلطنة، وضمنهم أساكي صنغاي الذين انعطفوا بتجارتهم عن المحور الغربي الواصل إلى أعمال المغرب الأقصى "**اهتزت أقطار السودان لصيتها، وداخلهم الرعب منها**"[38].

والظاهر أن رهان المنصور على فتح القطرين كان رفيعا، جسده عظيم ابتهاجه بانتظامهما إلى مُلكه[39].

وفي هذا السياق، تجمع الكتابات[40] على أهمية أولى جولات المنصور الصحراوية تلك، والتي عكست في الآن نفسه فاتحة جولات الصراع السعدي العثماني على الواجهتين الصحراوية والسودانية على السواء. ذلك أن من شأن احتواء الواحتين، فصل عساكر الترك عن سبل الصحراء الوسطى، وتأمين ثغور السلطنة السعدية ضد أية تهديدات جنوبية أو جنوبية شرقية. وهما مكسبان، أنعشا حظوظ المغرب الأقصى في التقبض مجددا بمحاور التجارة القافلية؛ وقبل هذا وذاك، هو نصر رمزي حاسم على سدة الباب العالي، وتحفيز لمواظبة ملاحم المنصور التي جعلت من افتتاح المصرين مجرد "**ركاب لما وراءهما وسلما لما يليهما**"[41]. وقد كان الغربي واصبا في استقراء عبارة الفشتالي تلك، عندما كشف أن ركاب الواحتين: أرض الطوارق الفسيحة؛ وما يليهما: ممالك الهاوسا وإمارة كانم بورنو[42]. بل هي في الأصل قراءة فاحصة للمنصور ذاته، الذي كان على بيّنة بمستوى الخطورة التي قد تثيرها دوائر الطوارق الممتد شعاعها على حيز غير يسير من القفر الصحراوي، موزع بين تديكلت من أعمال توات شمالا وتومبكتو حاضرة السودان النشيطة تجاريا من وجهة الجنوب، ثم غدامس وفزان من صحراء ليبيا شرقا[43]. حيث كانت هذه القبائل الصحراوية –في ظل تفاقم صراعاتها ضد بعضها البعض– مرشحة لاستجداء مظلة الخلافة العثمانية[44]. وهو سبب كاف لحمل المنصور على إرباك حسابات الأستانة والتشويش على أية تحالفات مفترضة بين باشواتها في الجزائر وشيوخ طوارق الصحراء، من خلال حملة واحات القبلة التي هيأت لدولته شريطا صحراويا عرضيا متراصا بين السوس ودرعة غربا، إلى تافيلات، توات، وتيكورارين شرقا؛ وكأنه لَيْمَسُ الرومان الذي فصل قديما شمال الصحراء عن جنوبها، ولَيْمَسُ المنصور ألجم من جانبه حِرَانَ الطوارق، وجعل اتصالات مراكش بشيوخهم ممكنة ومباشرة[45].

5ـــ بيعة ألوما وانضمام بورنو لحكم المنصور:

تكون الحملة –على ما تقدم– قد حازت شطر مقاصدها الأول، بتأمين الركاب إلى ما وراءها؛ قبل أن تجود وقائع الظرفية على السلطان السعدي بعَطِيّةٍ لا يُعفُّ طرفها ولا يُكَفُّ فضلها، والتي ستجعل من فتوحاته الجنوبية سلما لما يليها، عندما وفدت على المنصور 990ه/1582م رسل إدريس ألوما(*) سلطان كانم بورنو، إحدى أقوى ممالك السودان الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية الوسطى والشرقية، تستجديه سلاح نار وعدة حرب لقتال الممالك الوثنية المصاقبة لسلطنته[46]؛ فكانت تلك، فرصة المنصور لمد نظره أبعد مما رسمته مخططات سياسته الصحراوية، خصوصا وأن رسول ألوما قد أخفق سعيه عندما وفد بالمطلب ذاته قبل ذلك على سلطان الترك[47].

ولما كانت من صفات المنصور التريث بحكمة، فقد تلكأ في إرضاء رجاء ألوما، وتأهب –بالمقابل– لثاني جولاته الصحراوية ضد الخصم العثماني؛ فقد كان المنصور مدركا لحجم التنافر في علاقة ألوما بسلطات القسطنطينية، الناتج عن خلافات السلطنتين حول أحقية كل منهما باقتطاع مجالات نفوذ لهما بقفار فزان. وهي خلافات، بلغت حد الحرب المباشرة بينهما عندما تقدمت جيوش الترك 990ه/1582م إلى عمق الصحراء الليبية لرد هجومات جيوش ألوما[48].

وتأسيسا على ما سبق ذكره، يمكننا اعتبار طلب رسل سلطان كانم بورنو للسلطان السعدي، كان بقصد قتال الوثنيين من جهة، ثم تأمين مصالح سلطنتهم بصحراء فزان المتطاول عليها من جانب العثمانيين من جهة ثانية؛ وذلك بمساندة من المنصور في أعقاب مبايعته: "**ولما طلعت أيده الله على هذه الأصقاع الزنجية طلائع إمامته النبوية، فنهض بدليل الشرع أنه إمام الجماعة حقا، المستوفى شروطها، وأن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دَعِيٌّ. أشهد على نفسه بما فيه، وعلى رعيته الرئيس: أبو العلاء إدريس أسعده الله وأكرمه بتاريخ محرم 990ه/يناير 1582م**"[49]. وبتحقق البيعة يكون المنصور قد حاز ثاني انتصاراته الدبلوماسية على خلافة القسطنطينية.

ثم إن في التزام ألوما بالبيعة المنصورية، تهديدا مباشرا للمصالح الاقتصادية العثمانية الإفريقية، بعد أن صارت مسالك إيالاتها شمال القارة في اتجاه جنوبها مرتهنة بمواقف ممالك زنجية، أسقطت عن رقابها البيعة لسلاطين القسطنطينية لتنحاش إلى بيعة أجاد الفشتالي في إثبات أصالتها وحجيتها "**والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء الشجرة الطيبة الهاشمية إماما ومولى وخليفة، مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله في الأرضين، وسليل خاتم النبيئين ووارث الأنبياء والمرسلين، المفترضة طاعته على الخلق أجمعين، المنصور بالله مولانا أبي العباس**"[50]. ويكون بذلك قد أدرك الغايتين: مد نفوذ سلطنته إلى ممالك سودانية موازية للصحراء الإفريقية الوسطى والشرقية، وإقرار أحقية البيت السعدي بالخلافة على حساب بيت عثماني مفتقد لشروطها.

6ـــ تغازى، المملحة العقدة:

ولأن النصر والتمكين يستحكمان بتلاحق الفتوحات، فإن المنصور لم يُفوِّت رحلة إياب رُسُلِ ألوما دون أن يبعث معهم بخطاب إلى الأسكيا إسحاق، صاحب كاغو Gao، سلطان صنغاي، الإمبراطورية السودانية المترامية مجالات نفوذها جنوب الصحراء الأطلنتية، تضمن مطالبته "**بترتيب مثقال من الذهب العين على كل حمل من أحمال تغازى، تستعين به عساكر الدولة على جهاد الكفار**"[51]؛ علما أن حاجة المنصور كانت ملحة إلى إحباط تحالف صنغاي عثماني، يُفترض أن جرى توافق الطرفين بشأنه حوالي 988ه/1580م989ه–1581م[52] –على نحو ما رجحه إيسوفوISSOUFOU–. تحالف، لم يكن مستبعدا إبرامه في ظل حرص الأساكي منذ جَدِّ دولتهم الحاج محمد الأول(*) على التزام البيعة لخلافة القسطنطينية[53]. هذا، ويقدر ايسوفو Issifou دائما، أن يكون مبعوثو المنصور قد كشفوا إحدى سفارات الأساكي إلى الأستانة عندما تقبضوا بالمبعوث الصنغاني إلى السلطان العثماني في طريق عودته، وأن يكون مضمون السفارة التوافق بشأن تحالف عسكري مشترك بين كاغو والقسطنطينية، أو على الأقل، مد المملكة الزنجية بدعم عسكري لمواجهة أي تحرك من جانب المنصور في اتجاهها[54].

وتعتبر مخاوف صنغاي في هذا الإطار مبررة، فخطوات المنصور في اتجاه ممالكها ثابتة: حاز توات وتيكورارين، ضَمِنَ بيعة مملكة بورنو المجاورة لأراضيها إمعانا في محاصرتها وإضعافها[55]، ثم أحيى مطلب تسريح ملح تغازى الذي دأبت قوافل تجار المغارب على مقايضته بنفائس السودان الغربي قبل تغلب أساكي صنغاي على أحماله.

والظاهر أن المنصور، لم يعدم حلولا دبلوماسية ودية لإقناع كاغو بأحقية مراكش في استغلال المَلّاحة الصحراوية، عندما هادى الأسكيا داوود[*] بعشرة آلاف أوقية من الذهب 989ه/1581م، مغازلا إياه بطلب التنازل عن جبايات المملكة لسنة واحدة[56]؛ حتى إن الأسكيا "**تعجب من سخائه وجوده، فكان سبب المحبة والوصلة بينهما**"[57].

وبالفعل، سرّح داوود للمنصور إيرادات المملحة لحول كامل، وساد الود والصدق أيام السلطانين[58]؛ بل إن أمارات هذا التوادد قد امتدت إلى عهد الأسكيا محمد الثالث[*]، الذي ناله من كرم المنصور سفارة تهنئة مثقلة بالعطايا والنفائس 992ه/1584م، لم تغير في مواقف صنغاي من ممالح الجنوب المغربي شيئا[59]. ما اضطر مراكش إلى ترجيح الحل العسكري، مادامت رغبة المنصور في إحياء أدوار المغرب التاريخية على مستوى التجارة الصحراوية تُلزم بنفوذ على أعمال المملحة. لأجل ذلك، سُيِّرت حملة أولى أواخر 992ه/1584م، قوامها عشرون ألف محارب، لم تَقْفُ لها المصادر على مصير محدد، فالفشتالي أعادها سالمة غانمة إلى قواعدها[60]، فيما أضاعها السعدي بين زوابع رمال الصحراء وكمائن الطوارق[61].

وسواء أفلحت الحملة أم خابت مساعيها، فالثابت أنها لم تُعِدْ سلطة المنصور إلى تغازى، فتلك مهمة خاصة، أناط بها أبو العباس أحمد فرقة رماة لم تعد المئتين، أمرهم بأخذ المملحة لولا أن كان رد الأسكيا عليها مرواغا، بمنعه رفود الملح من هناك "**ثم أرسل قائدا ومعه مائتين راميا إلى تغازى وامرهم بأخذ أهله، فسمعوا به قبل وصولهم، فخرجوا منه هاربين، فذهب أعيانهم إلى أسكيا وذكروا له ذلك فاتفق معهم على أن يمنعوا رفود الملح منه. وفي سنة 994ه، جاء الخبر بأن لا يذهب أحد إلى تغازى، فمن مشى إليه، فماله هدر، فرجع القائد والرماة إلى مراكش**"[62]؛ ما اضطر السلطان السعدي إلى معاودة تجريب الخيار الدبلوماسي مجددا، موظفا حالة عدم الاستقرار السياسي التي طالت صنغاي بعد الثورة التي أطاحت بالأسكيا محمد الثالث 994ه/1586م، ليجدد طلبه إلى الأسكيا إسحاق الثالث[*] بشأن الترتيب بينهما على أحمال الملح المرفود من تغازى؛ إلا أن الأمير الصنغاني لم يسعفه –مرة أخرى– بما طلب، بل أساء الجواب عندما رد سفارة المنصور بحرشان ونعلين من حديد[63]. وكانت تلك دعوة صريحة من جانبه إلى الحرب والقتال، وهو ما كان له المنصور على أتم أهبة.

ويقدر أن كان تلويح الأسكيا إسحق الثالث بالحرب، ليقينه ببعد الشقة بين أراضي السلطنتين، وأن الصحراء بينهما له حجاب ووجاء؛ لكنه أخطأ التقدير في مواجهة سلطان مغربي، الصحراء منشؤه وأمل دولته: "**كما تعلمون، قد توغلت في الجنوب إلى أبعد الأقاليم مع المعمور، واعترضت دونها من القفر وسرابه المتموج بحور وصحاري تظل القطا في مهامهما الفسيح، وتكل في جوب عرضها، حتى ظن أهل السودان أن سربهم من أجل البعد والمفاوز المعترضة دونهم لا يراع، وليلهم الديجوجبي لا يرجى لفجره انصداع؛ وحماهم من هذه المشاق لا يطرق**"[64].

7ـــ كاغو: الفتح العظيم:

من الثابت أن الغاية السعدية من اقتضاء ممالح تيغازى كانت بغرض إحياء خطوط التجارة الصحراوية، التي تتخذ من الملح والذهب أساس مبادلاتها السلعية "**وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها، بما لديها من أموال، وحاجتهم إلى ملوك أودغشت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قَوَامَ لهم إلا به**"[65]. لأجل ذلك، انطلقت حملة السودان 999ه/1591م من مراكش إلى مناجم الأدغال الإفريقية الاستوائية: "**وأوعز مولانا الإمام إلى مولاه وعامله على البلاد جودر باشا بملاك أمر معادن الذهب الثلاثة التي اكتنفتها هذه الممالك، وامر بالبناء عليها واختطاط الحصون الجاثمة عليها وترتيب الجيش فيها لجبايتها**"[66].

وبين مشيد بنتائج الحملة[67]، ومقلل من أهميتها[68]، في إعادة توزيع مسارات المبادلات عبر الصحراء، يكون من الإنصاف الاعتراف للمنصور بمقدرته –خلال ظرفية عصيبة– على إحياء التاريخ الإمبراطوري للدولة المغربية، التي امتد حكمها فيما وراء الصحراء هذه المرة لثلاثة قرون كاملة إلى حين سقوط تمبكتو في أيدي الفرنسيين 1301ه/ 1884م.

كما يُحسب له ضخ انتعاشة متجددة في شرايين الصحراء بعد ركود نسبي خلال القرن 9ه/15م. علما أن المناجزات العثمانية شرقا، والإيبيرية غربا كادت تجعل المهمة مستحيلة؛ ومع ذلك، أَمّنَ الفتح السوداني للمغرب السعدي نصيبه المقتدر من ذهب إفريقيا جنوب الصحراء؛ فقد أسهبت الكتابات في جرد حصيلة الحملة، حيث بعث جودر قائدها مائة ألف وقية من الذهب، ومائة من أخيار الرقيق؛ ثم أرسل خلفه بن زرقون هدية مماثلة، ثم مائة ألف مثقال ذهب إضافية. وعاد جودر من مهامه بثلاثون حملا من التبر تفوق قيمتها ست مائة ألف جنيه، وناهزت قيمة الضريبة السنوية التي دأبت تمبكتو على إيفادها مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه، ما يعادل ستون كنتالا من الذهب الخالص[69].

والأهم من ذهب السودان، تأكيد سلطة الدولة المغربية على نطاقات صحراوية واسعة، ظلت على مر التاريخ امتدادها الطبيعي، الذي لا مجال لإنكاره منذ الأدارسة على الأقل. فبحسب "صاحب المعسول"، يكون المنصور –منذ السنوات الأولى لتوليته الحكم– قد نظم تلك النطاقات[70] تنظيما تاما، وحصر الوظائف المخزنية بها والتكاليف المختلفة[71].

كما تذهب بعض الكتابات الأخرى، إلى اعتبار بلاد السودان بدورها نطاق امتداد طبيعي للنفوذ السياسي للدولة السعدية، اعتبارا للإرث السياسي التاريخي للدولة المغربية بشكل عام[72].

8ـــ فجيج، انكسار آخر التطلعات العثمانية الصحراوية:

إن استراتيجية المنصور الصحراوية، والتي أمكنته من إطاعة الواحات القبلية، وأعادت ممالح تغازى لنفوذ دولته، وأدانت لحكمه مجالات صحراوية واسعة قبل أن تُبلغه ممالك السودان، قد رفعت منسوب توجسات الجزائر التركية من احتمالية احتكار السعديين لمجمل منافذ التبادل الأفرو مغاربي، خصوصا وأن "**كلمة المنصور صارت نافذة فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط من ناحية المغرب. وذاك ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله**"[73]. لأجل ذلك، يرجح أن تكون القسطنطينية قد لجأت إلى استراتيجية مضادة تقضي –بحسبها– بمحاولة حصر هذا النفوذ المغربي الصحراوي عند أولى عتبات القفر الشمالية؛ والحالة هاته، تجعل من فجيج واحة مستهدفة بدرجة أولى بالنظر إلى موقعها عند مطلع الأطلس الصحراوي، الذي يؤهلها لاختراق أحد أنشط المحاور التجارية في اتجاه الواحات التواتية؛ وربما، جعلها موقعها ذاك قبلة تجارية تتقاطع عندها قوافل السودان وفاس وتلمسان[74].

وقد كانت بعض المصادر سباقة إلى الإشادة بهذا الموقع المتميز، عندما اعتبرها الوزان "**من قواعد نوميديا (البلاد الصحراوية)، تتكون من ثلاثة قصور وسط الصحراء، وأن الفئة النشيطة من سكانها يتعاطى بعضهم التجارة، فيسافرون إلى السودان**"[75] للمشاركة في تجارتها بما يُنتجونه من نسيج صوفي متفرد وملح وتمور، حتى إن "**جميع الفيجيجيين أثرياء**"[76].

وهو أيضا رأي الكتابات الأجنبية حول الأهمية التجارية لهذه الواحة الصحراوية، حيث اعتبرها جون ديفيس Jean Devisse أحد مراكز طرق التجارة مع السودان التي تربط تيكورارين، توات بتلمسان[77].

إلى كل هذا، تنضاف منزلة الواحة وسطا بين إيالة الجزائر التركية ومغرب السعديين عند الأعتاب الأولى لصحراء الجنوب الشرقي؛ وهي في مجموعها محددات تجعل منها مجالا مركزيا، سعى كلا الكيانين لضبطه إلى سلطة نفوذه، خصوصا من جانب باشوات الجزائر، الذين اعتقدوا أن ضم فجيج من شأنه قطع طريق تلمسان على المنصور، في أعقاب حيازته واحتي توات وتيكورارين[78]. مستحضرين المنافع الجبائية التي تحصلت لخزائنهم خلال محاولات سابقة عهدي الغالب بالله والمعتصم؛ وإن كانت محاولات محسوبة

لفائدة الأمراء السعديين، مادام دور الأتراك فيها لم يَعْدُ جانب الاستجاشة بقواتهم لتصفية حسابات حكم داخلية. فقد دأب الغالب بالله على جباية خراج الواحة الصحراوية[79]، قبل أن يتقدم عبد الملك لاستخلاصها بمساعدة قوات عثمانية 976ه/1568م[80]؛ لولا أن الغالب بالله أجهض سريعا اندفاع أخيه الذي –لربما– هيأ بذلك فرصة للأتراك في التضييق على جهود السعديين في التموقع مجددا ضمن خارطة التجارة الأفرو مغاربية؛ لأنه لو كُتبت الاستمرارية لحملة عبد الملك، لأمكن للقسطنطينية مراقبة مجمل محاور العبور بين شمال الصحراء وجنوبها بعد أن دانت لهم فزان بالجنوب الليبي، غدامس بالجنوب التونسي، ثم ورجلة بالجنوب الشرقي الجزائري. وبتحقق سيطرتهم على فجيج، تتم لهم محاصرة توات وتيكورارين[81]، وهو ما قد يضع السعديين في مأزق حقيقي يُعمّقُ عزلتهم شرقا من جانب العثمانيين، وغربا من جانب الإيبيريين.

المهم، أن الغالب بالله أحبط محاولة أخيه عبد الملك، وأفشل بالموازاة مع ذلك خطة التطويق العثمانية. ومع ذلك، عاد باشوات الجزائر لطرق أبواب الواحة مجددا 984ه/1577م، عندما جبى رمضان باشا من الفيجيجيين أربعة عشر ألف مثقال، حملت عبد الملك على التظلم إلى السلطان العثماني مراد الثالث، الذي أمر –على عجل– بإخلاء الواحة وإقالة واليه على الجزائر[82].

ولأن جباية الواحة وافرة، فلا ضير من معاودة التربص بها مجددا، فعلى عهد المنصور –هذه المرة–جَهّزَ حسن باشا[*] حملة عسكرية 990ه/1582م، تصدت لها بنجاح قوات السعديين وإن غنمت منها قوات الأتراك ألفي مثقال[83].

ولتستمر المحاولات العثمانية في الظفر –على الأقل– بجبايات الواحة الفيجيجية من خلال ما كشفت عنه مراسلة سلطانية من مراد الثالث إلى واليه حسن باشا، يَسْتَحِثُّهُ فيها على ضرورة إيفاد موظفيه إليها لتحصيل ضرائبها[84]، إلا أن الأطماع العثمانية بالمنطقة عهد المنصور أضحت شبه مستحيلة بعد التحصينات التي أقامها الأخير بالقصور الرئيسية للواحة، وجهوده في تدعيم شارات سلطانه بها. ولعله كان حاذقا عندما أنعم على الزوايا المحلية[85] بالامتيازات وبظهائر التوقير: "**رعيا لما هم عليه من خدمتنا وما عرفوا به من محبتنا**"[86]، مانحا إياهم صفة تمثيلية[87] تخولهم القيام مقام السلطان بربوع الواحة.

وبحصر محاولات الاندفاع العثمانية في اتجاه فجيج، يكون المنصور قد صد منافذ الجزائر التركية على الواجهة الصحراوية بعد أن اقتطع لدولته –باقتدار، وخلال ظرفية إقليمية عصيبة– مُلكا إمبراطوريا بعمق جنوبي خالص، حاز الصحراء شمالها وجنوبها، وأعتق المغرب السعدي من وضعية الدولة العازلة بين قوتين، افترضتا أن الصراع المتوسطي محصور بينهما؛ لولا أن انبعثت دولة المنصور لاستكمال صرح الشيخ، وتجعل من الاستراتيجية الصحراوية علامة فارقة في تاريخ المنطقة عندما أحيت أمجاد الدولة المغربية المتأصلة صحراويتها منذ غابر القرون.

خاتمة:

لقد أفصح سلاطين الدولة السعدية على امتداد القرن 10ه/16م عن نضج سياسي رفيع في التجاوب مع وقائع مرحلة، تعد الأعقد في تاريخ الدولة المغربية. أثبتوا خلالها، وبخاصة منهم الشيخ والمنصور، أن الصحراء والعمق الإفريقي للمغرب الأقصى قادرين على فرض مَوْقَعَةٍ مَهيبة لسلطنتهم ضمن سياق إقليمي مشبع بالتهديدات الخارجية.

وإذا كانت القسطنطينية قد سعت إلى إجهاض الاستراتيجية الصحراوية السعدية، عندما اغتالت الشيخ؛ فإنها أسلمت لاحقا بجموح طموح المنصور الذي، بإذاعته ملكه إلى ما وراء الصحراء، أعتق المغرب الأقصى من وضعية الدولة العازلة بين العثمانيين والإيبيريين، مثلما أحيى الأصول الصحراوية للدولة المغربية وارتباطها التاريخي بعمقها الإفريقي.

الهوامش:

(1) Voir : Yahya Dahiro : The Idéological from work of Saadi Foreign Policy in:
المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، مطبعة النجاح الجديدة –البيضاء، 1995، ط.1، ص.241.

(*) حكم: 964ه-1557م/982ه- 1574م.

(2) الإفراني محمد الصغير: نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح– الجديدة، الدار البيضاء 1988، ط.1ص.50.

(3) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، 2000، ج.3، ص.286.

(*) حكم: 984ه-1576م/986ه-1578م.

(4) يلماز أوز تونا: تاريخ الدولة العثمانية، منشورات فيصل للتمويل، إستامبول، 1998، ص.388.

(**)حكم: 965ه- 1558م/1012ه/1603م.

(5) يلماز أوزتونا: ن.م.س، ص.391.

(6) التمكروتي، أبو الحسن علي: النفحة المسكية في السفارة التركية، طبعة حجرية، د.ت. ص.109.

(7) عبد الله استيتو: الدولة السعدية، جوانب من تاريخ المغرب الحديث BJ Print. أكادير 2017، ط.1، ص.296.

(8) تفصل بعض الكتابات حول تعداد جيش المنصور، فتجعله مكونا بشكل نظامي أو غيره: 4000 من المسيحيين ومثلهم من الأندلسيين، 40.000 مرتزق معظمهم أتراك، 1500 من قبائل زواوة الكتامية و200.000 من الأعراب. Voir : Détail : H. Terrasse, Histoire du Maroc des Origines à l'Etablissement du Protectorat Français, éditions Atlantides Casablanca 1950. T2, p.p.193-194.

(9) Mohamed Laalaoui : Regards sur le Monnayage Saharien. In : المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بداية العصر الحديث Op.cit. op.cit. p.85.

(10) J.D. Berthes : Contribution à l'histoire du Maroc par les Recherches Numismatiques. Imprimerie les annales marocaines. Casablanca 1939, p.p.203-205.

(11) من خطاب المنصور إلى الأشراف والفقهاء والأعيان عقب ورود خبر فتح السودان، عن: هسبريس، عدد4/1923، ص.478.

(12) Luis Del Marmol Y Carvajal: L'Afrique éditions Thomas Jolly 1667, T3, p.7.

(13) Voir : Michel Abitbol : Histoire du Maroc, éditions Perrin, Paris 2014,. p.p.204-205.

(14) استفتح المنصور عهده 986ه/1578م بمطالبة الأسكيا داوود (حكم: 956ه-1549م/990ه-1582م) التخلي عن استغلال سلطنته لممالح تغازى، وفرضه مثقالا ذهبيا عن كل حمل يقصد المملحة. كما عيّن على الأخيرة كتيبة من مئتي مجند لحراستها، ليرد الأسكيا بأمر تحول تجاره عنها إلى ممالح تاودني 993ه/1585م في تصرف مماثل لما فعله زمن الشيخ.
- Voir : Bovill. E.W : the golden trade of the Moors. West Africain Kingdoms in the Fourteenth Century. Oxford University Press. London. 1958, p.141.

(15) من خطاب المنصور لجماعة مشورته تهيئا لحملة السودان، أورده عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط 1972، ص.128.

(16) عبد العزيز الفشتالي: ن.م.س، ص.128.

(17) ابن القاضي أحمد: المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق: محمد رزوق، مكتبة المعارف، الرباط 1986، ج.1، ص.192.

(18) الفشتالي: ن.م.س، ص.80.

(19) ابن القاضي: ن.م.س، ص.192.

(20) استيتو عبد الله: الدولة السعدية، جوانب من تاريخ المغرب الحديث BJ Print أكادير 2017، ط.1، ص.205.

(21) بوشرب أحمد: المغرب وإفريقيا في سياق كشوف العوالم الجديدة، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 1992، ط.1، ص.17.

(22) استيتو عبد الله: م.س، ص.205.

(23) من خطاب مراد الثالث إلى باشا الجزائر، أورده بنحادة عبد الرحيم: المغرب والباب العالي، من منتصف القرن 16م إلى نهاية القرن 18م. مؤسسة التميمي، زغوان 1998، ص.116.

(24) حجي محمد: حملة المنصور وهاجس الخلافة ضمن: المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، م.س. ص.29.

(25) من خطاب مراد الثالث أورده حجي عن الناصري: حملة المنصور وهاجس الخلافة، م.س، ص.29.

(26) El Mouden, Abderrahmane : the idea of the Caliphate betwen Moroccans and ottomans : Political and Symbolic Stakes in the 16th and 17th centuray- Maghrib. In : Studia Islamica 1995, N°82, p.p.103-112, p.p.108-109.

(27) يُنظر: الطبايلي عبد الحفيظ: مصدر عثماني حول تاريخ المغرب السعدي، البحر الزخار والعليم التيار لمؤلفه: مصطفى الجنابي. ضمن: التاريخ العربي 1999، عدد 12، ص.ص.197-233، ص.328.

(28) ملين محمد نبيل: الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، ترجمة عبد الحق الزموري وعادل بن عبد الله، كوثر برانت، الرباط 2013، ص.339. عن رسالة من رمضان باشا إلى الأمير داوود، 987ه/ ماي 1579 محفوظة في أرشيفات سيمانكس الإسبانية، مخطوط رقم 160. حصلنا على نسخة منه من إدارة الأرشيف.

(29) Laroui. Abdellah : l'Histoire du Maghreb. Un Essai de Synthèse. François Maspero, Paris 1976, T2, p.235.

(30) Voir: Victor Louis Ménage: the ottomans and Nubia in the 16th Century in. Annales Islamologiques. Le Caire XXIV 1988, p.p.137-155, p.145.

-المودن عبد الرحمن: تساؤلات حول موقف العثمانيين من الغزو السعدي للسودان، ضمن المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث. م.س، ص.16.

(31) استحكمت للعثمانيين ثلاثة من أصل أربعة محاور صحراوية رئيسية تصل شمال الصحراء بجنوبها.

ـــ المحور المنطلق من مصر أو فزان، العابر لغدامس قبل الانتهاء عند نجامينا على بحيرة تشاد أو عند كوكيا غرب غاو الصنغانية.

ـــ المحور المنطلق من تونس أو قسنطينة أو الجزائر، الواصل إلى تيكورارين والذي يضمن التموين بمياه الآبار وبعض فسح الرعي.

ـــ المحور المنطلق من وهران وتلمسان والمار عبر توات وتمنطيط والواصل إلى السودان دون عناء اختراق العرقين الشرقي والغربي.

- Voir : Sabatier, Camille : Touat, Sahara et Soudan, Etude Géographique, Politique, Economiue et militaire. Société d'Editions Scientifiques, Paris1981, p.99.

- E. Boulangier : Les Voies Sahariennes in : Revue Société de Géographie, tours 1887, p.29.

- محمد الغربي: الحكم المغربي في السودان الغربي، م.س، ص.146.

(32) Bellil Rachid : Les Oais du Gourara, Sahara Algérien, Le Temps des Saints. Editions Pecters. Paris Louvain 1999, p.123. Issifou Dramani : l'Afrique noire dans les Relations Internationales au 16ème Siècle. Karthala, Paris 1982, p.217.

(*) حكم: 985ه-1577م/988ه-1580م.

(33) A.J.P. Martin : Quatre Siècles d'histoire Marocaine, au Sahara de 1504 à 1902, au Maroc de 1894 à 1912, éditions et impression Bouregreg, Rabat 2015, p.35.

(34) Bellil Rachid : op.cit. p.125.

(35) قائد أولى حملات المنصور إلى توات وتيكورارين، واليه على سجلماسة عمر بن محمد بن عبد الوالي 990ه/1582م إلا أن تثاقله بفجيج أخّرَ مشروع ضم الواحتين، ليتجهز المنصور إليها ثانية 991ه/1583م بعساكر فاس ومراكش، التي افتتحت تينميمون قاعدة قصور تيكورارين غلابا، قبل أن تخضع تمنطيط قاعدة قصور توات من غير قتال.

تفاصيل أوفى مع الفشتالي: ن.م.س، ص.ص.76-78.

(36) الفشتالي: ن.م.س، ص.78.

(37) نفسه، ص.76.

(38) نفسه.

(39) نفسه، ص.78.

(40) Moulin. Nabil: Le Califat Imaginaire. Al Manssour, Pouvoir et Diplomatie au Maroc au 16ème Siècle. Presses Universitaires de France, Paris, 2009, p.312.

– محمد الغربي : م.م.س. ص.146.

(41) الفشتالي: ن.م.س، ص.76.

(42) محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، 1982، ص.148.

(43) يُنظر: نور الدين شعباني: علاقة السلطة العثمانية بإمارات الصحراء الكبرى، المجلة التاريخية الجزائرية، مجلد 4، عدد 2، 2002، ص.ص.90-102، ص.97.

(44) نموذج قبائل صندال بالآير وأغاديس، ومنهم قبيلة لسوان التي عمرت لأربعة قرون، ربطت خلالها تاريخها منذ القرن 9ه/15م بخلافة القسطنطينية حتى إن سلاطينها لقبوا بـــ:"اسطمبولا".

- Voir : Yves Urvoy : Chronique d'Agadès in : Journal de la Société des Africanistes, 1934, T4, Fascicule 2, p.p.145-177, p.149.

(45) الغربي: ن.م.س، ص.149.

(*) حكم: 971ه- 1564م/1004ه-1596م.

(46) الناصري: ن.م.س، ج.4، ص.112.

(47) نفسه.

(48) Voir : Rossi E. Hores : La Gronaca Arabo Tripolina Di Ibn Calbun, Tradotta E Annotata. Bologna, 1936, (SeeXVIII), p.75.

(49) وثيقة البيعة كاملة عند الناصري: ن.م.س، ج.4، ص.ص.113-116.

(50) الناصري: ن.م.س، ص133 وما بعدها.

(51) نفسه، ص.116.

(52) Zakari Dramani Issifou : L'Afrique Noire dans les Relations Internationales aux XVI^{ème} Siècles, éditions Karthala 2000, p.135.

(*) حكم: 898هـ- 1493م/934هـ -1528م.

(53) محمد كعت التنبكتي: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، دراسة وتعليق: آدم بمبا، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت 2014، ص.162.

(54) يعتبر إيسوفو Issifou أن الغربي صاحب: "الحكم المغربي في السودان الغربي، نشأته وآثاره" هو أول من أثار المعلومة، لكن بحثا مستفيضا في مجمل أعمال الأخير لم تُعثرنا على ما يُثبت ذلك. فإلى جانب أطروحته لا أثر لمعلومة بهذا المعنى في كتابه: "موريتانيا ومشاغل المغرب الإفريقية" 1961، ولا في كتابه الآخر "الساقية الحمراء ووادي الذهب" 1973. إلا أن إصرار إيسوفو على احتمالية الحدث دفعه أيضا إلى استقصاء آراء بعض المسشرقين المنشغلين بالموضوع، حيث يورد إيسوفو مقتطفا من رسالة خصه بها كلود كاهين Claude Chen تعزز فرضية الوفاق بين الأساكي والباشادورات، نقرأ فيه:

« L'hypothèse d'une Ambassade de Relations entre Goa et les Ottomans me parait à priori Vraisemblable ».

- Voir : D. Issifo, op.cit. p.134 et marge 14 de la même page.

(55) Hunewick. J.o. : Songhay, Bornou, and Housloud in the 16th Centurey in History of West Africa 1971. Vol I, p.236.

(*) حكم: 992هـ- 1584م/994هـ -1586م.

(56) عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مطابع فضالة المحمدية 1988، ص.240.

(57) عبد القادر زبادية: مملكة صنغاي في عهد الأسكيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص.48.

(58) السعدي عبد الرحمن: تاريخ السودان، تحقيق: هوداس، المطبعة الأمريكية الشرقية، باريس 1981، ص.111.

(*) حكم: 994هـ-1586م/996هـ-1588م.

(59) عبد الهادي التازي: ن.م.س، ص.240.

(60) "وبادر المنصور بتجهيز العساكر من جهة الساحل، فنهضوا من السوس وخاضوا القفر مع الساحل إلى السودان فوصلوا إليها لتسعين مرحلة متصلة من ثغور ممالك العرب القبلية 992هـ/1584م، فلم تنبعث حفائظهم للدفاع ولا حدثوا أنفسهم بالحرب لعلمهم أن لا طاقة لهم بمقاومة عساكر المغرب وجنود الإمام، فبادر ملوكهم باللحاق واللياذ بالطاعة وكلهم من ملوك السواحل ببلاد السودان، وأقبلوا على كتاب أمير المؤمنين، وطالبهم القواد بالبيعة فأذعنوا لها، وارتحلت العساكر تخترق ممالك السودان حتى انتهت لخليج النيل (السنغال) وكان الذي استجاب لهم ودَانَ بالطاعة والانقياد من عرب الفلاة نيفا وأربعين ألف خيمة. فحصل أمير المؤمنين على ما أراد من الاستعانة بكثرة ما أجمع عليه من الحركة إلى سكية بجهة الجنوب".

ـــ الفشتالي: ن.م.س، ص.ص79-81.

(61) "وبعد ذلك ورد الإخبار أنه بعث (المنصور) جيشا فيه عشرون ألف رجالا إلى جهة ودان وأمرهم بأخذها هناك من البلدان على شاطئ البحر وغيره حت يصلوا إلى بلاد تنبكت، فتخوف الناس من ذلك غاية الخوف، ثم شتت الله ذلك الجيش بالجوع والعطش فتفرقوا شذر مذر ورجع من بقي منهم إليهم وما قضوا شيئا من مراده". – السعدي: ن.م.س، ص.120.

(62) السعدي: ن.م.س، ص.ص، 120-121.

(*) حكم: 996هـ- 1588م/999هـ-1591م.

(63) الناصري: ن.م.س، ج.5، ص.111.

(64) الفشتالي: ن.م.س، ص.144.

(65) ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1992، ص.98.

(66) الفشتالي: ن.م.س، ص.165.

(67) يُنظر نموذجا: شوقي عطا الله الجمل: تمبكتو وعلاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور تحت الحكم المغربي ضمن المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، في بدايات العصر الحديث. م.س، ص.ص.53-55.

(68) Voir : à titre d'exemple : Bernard Lugan : Histoire du Maroc des Origines à nos jours, éditions Ellipses 2011, p.p.169 et suivante.

(69) يُنظر: السعدي ن.م.س، ص177.

- Bouvill. Edward William. The Golden Tarde of the Moors. West African in the Fourteenth century .Darf
Publisherars. London.2002, p.p.190 et 197.

(70) يقصد المجالات الصحراوية بين سوس وتندوف.

(71) محمد المختار السوسي: المعسول، المطبعة الملكية، الرباط 1963، مجلد 1، ص.ص.93-95. خلال جزولة: المطبعة المهدية، تطوان 1362، ص.83.

(72) تُنظر: بناني سميرس: العلاقات المغربية السودانية في سياسة الأسر الحاكمة بالمغرب من ق.16 إلى ق.18م، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، عدد5، ص.1989، ص.185.

(73) الإفراني: ن.م.س، ص.168-81.

(74) بزاوي الكبير: فجيج والمجال عبر التاريخ ضمن مؤلف جماعي: مقاومة المد الاستعماري بمنطقة فجيج. قصف فجيج سنة 1903- ندوة علمية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة كوثر، 2005، ط.1، ص.29.

(75) الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي- بيروت 1983، ط.2، ج.2، ص.132.

(76) نفسه.

(77) Jean Devisse : Route de commerce et échange en Afrique Occidental en Relation avec la Méditerranée : un Essai sur le Commerce Africain Médiévale du XI^{e} au XVI^{e} Siècle Revue d'Histoire Economique et Sociale, Vol 50, N° 1, 1972, p.p.357-397, p.389.

(78) N. Moulin, op.cit. p.318.

(79) تنظر: وثيقة مؤرخة بذي القعدة 975ه/1567م بشأن غرامة سلطانية مترتبة على أحد الفجيجيين. أوردها: محمد بوزيان بنعلي: فجيج في عهد السعديين، السياسة، الثقافة والمجتمع، سلسلة تراث فجيج4، مطبعة الجسور، وجدة 2005.

(80) بوزيان: ن.م.س، ص.21.

(81) N. Moulin, op.cit. p.319.

(82) يرجح أن كان سبب الإقالة احتفاظ رمضان باشا بمبالغ الجباية وعدم تسليمها لخزانة الدولة.
يُنظر: عزيز سامح الترك: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية. ترجمة: محمد علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت 1989، ط.1، ص.252.
-عبد الله كنون: رسائل سعدية، دار الطباعة المغربية، تطوان 1954، ص.9.

(*) حكم: 985ه-1577م/989ه-1581م ثم 991ه-1583م/993ه-1585م.

(83) أحمد مزيان: فجيج، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن 19م (1845م-1903م)، مطبعة فجر السعادة 1988، ص.6.

(84) N. Moulin, op.cit. p.319.

(85) زاويتي بن عبد الجبار وآل عبد الوافي نموذجين. يُنظر: بوزيان: ن.م.س، ص.28.

(86) من ظهير سلطاني مؤرخ 3 ذي القعدة 992ه-1584م. أورده بوزيان: ن.م.س، ن.ص.

(87) العربي هيلالي: فجيج التطور التاريخي من خلال الموقع الاستراتيجي، ضمن مقاومة المد الاستعماري بمنطقة فجيج، قصف فجيج 1903م نموذجا. ندوة، مطبعة الكوثر 2005، ط.1، ص.40.